المكابر الأول
«أبى واستكبر»

هو حامل لواء المكابرة بلا منازع، وهو قائد المتمردين بلا منافس، وقدوة العاصين المارقين والخارجين على الأنظمة والقوانين.

أعمته مكابرته، فوقف أمام مالك الملك، وخالق الخلق، ومبدع الكون، ناسياً نفسه، غافلاً عن حجمه، مغروراً بمادة تكوينه «النار» متجاهلاً أنه لم يخلق نفسه، ولم يخلق النار التي خلق منها، وأنه لا حول له ولا قوة في شيء من ذلك.

إنه «المكابر الأول» إبليس نعوذ بالله من شره ووسوسته وعصيانه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34].

هنا موقف عظيم، مخلوق خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلَّها، ومنَّ عليه سبحانه بكرامته، فجعله كريماً.

ثم أمر الملائكة بالسجود تكريماً لهذا المخلوق، فسجد الملائكة كلهم، إلا ذلك المكابر، فقد أبى أن يسجد، وقد نصّت الآية على سبب ذلك: «أبى واستكبر».

يورد ابن كثير في هذا الشأن عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنّ، خلقوا من نار السَّموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزَّان الجنة.

قال: وخلقت الملائكة كلُّهم من نور، غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار.

فأول من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء، وقتل بعضهم بعضاً.

قال: فبعث الله إليهم إبليس في جندٍ من الملائكة ـ وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجنّ ـ فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور، وأطراف الجبال، فلمَّا فعل إبليس ذلك اغترَّ في نفسه فقال:

قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فقال الله للملائكة الذين كانوا معه: «إني جاعل في الأرض خليفة» فقالت الملائكة مجيبين له: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، كما أفسدت الجن، وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم لذلك؟

فقال: «إني أعلم ما لا تعلمون»، يقول سبحانه: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كِبْره واغتراره.

قال: ثم أمر الله سبحانه وتعالى بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ اللاَّزب: اللَّزج الصَّلب ـ من حمأ مسنون ذي رائحة منتنة، وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب، فخلق منه آدم بيده.

قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، ويصلصل، أي: يصوِّت، قال: فهو قوله تعالى ﴿**مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾، يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمصمت، قال: ثم يدخل إبليس في ذلك الجسد ويخرج، ثم يقول: لست شيئاً، ولشيءٍ ما خلقت،

ولئن سلِّطت عليك لأهلكنك، ولئن سلِّطت عليَّ لأعصينَّك، قال: فلما نفخ الله في جسد آدم من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لايجري منها شيء في جسده إلا صار لحماً ودماً، فلما انتهت النَّفخة إلى سرَّته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ قال: معناها أنه ضجر لا صبر له على سرَّاء ولا ضراء، قال: فلما تمَّت النفخة في جسده عطس فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام من الله له.

فقال له: «يرحمك الله يا آدم»، ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصةً دون الملائكة الآخرين الذين في السماوات:

اسجدوا لآدم، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس «أبى واستكبر» لما كان حدث في نفسه من قبل من الكبر والغرور، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار، وخلقته من طين.

قال: فلما أبى إبليس أن يسجد، أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كلِّه، وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته.

تفسير ابن كثير: الجزء الأول ص 98.

وفي سياق آخر عن ابن عباس قال:

كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمة «عزازيل»، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر والاغترار بنفسه، وكان من حيٍّ يسمَّون جنَّاً.

كان إبليس، اسمه «عزازيل»، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بمعصيته.

وفي سياق آخر أيضاً:

كان إبليس من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وقال ابن عباس أيضاً: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم «الجنّ»، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السَّماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

مع أن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قطّ، وإنه لأصل الجنّ، كما أ نَّ آدم أصل الإنس.

وعن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبي إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبَّد معها، فلما أمرهم الله بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ [الكهف: 50].

قال قتادة:

حسد عدوُّ الله إبليس آدم عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيّ، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

وقد ثبت في الصحيح:

«**لايدخل الجنَّة من في قلبه مثقال حبَّة خردل من كِبْر**».

وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرَّحمة، وحظيرة القدس.

«وكان من الكافرين»: الذين أبوا واستكبروا وعصوا، أيّ إنَّ عصيانه جعله من الكافرين المبعدين عن رحمة الله، وجنَّته.

«المكابرة والعناد والغرور» هي أوَّل ما عصي به الله عز وجل، وهي أوَّل ما هلك بها مخلوق من مخلوقات الله.

إنها الأساليب الشيطانية التي بدأ بها إبليس فكان من الهالكين.

الكبرياء ليست للمخلوقات الضعيفة، إنما هي لله القوي العزيز، فالمخلوق مخلوق، سواءٌ أكان خلقه من التراب، أم من النور، أم من النار، مع وجود التَّمايز بين هذه العناصر.

أما الخالق القادر فهو الذي تليق به الكبرياء.

هذا هو المكابر الأوَّل الذي فتح باب المكابرة على مصراعيه السَّوداوين، ونفخ نفسه نفخة كاذبة، كانت سبباً في هلاكه وضياعه، واستحقاقه عذاب الجحيم.

إنها صورة قرآنية واضحة للمكابر الأول «الشيطان الرجيم» رسمتها آيات القرآن الكريم ببلاغة وبيان، فما عاد لأحد ممَّن يطَّلع عليها عذرٌ في أن يهلك بالمكابرة والغرور.

لقد كابر «إبليس» فحقَّ عليه غضبُ الله، وظلَّ بعد استحقاقه لغضب الله على كبريائه وغروره، وانطلق بعد المكابرة إلى الكيد والخداع، فأخذ يكيد لأبينا آدم عليه السلام، ويخدعه، ويتظاهر بأنه يريد مصلحته حتى أوقعه في الخطأ الذي أفقده وأفقد ذريته حياة الجنة الناعمة.

obeikandl.com

ولكن آدم عليه السلام تاب فتاب الله عليه، لأنه كان سليماً من داء المكابرة والاغترار، وداء الحسد والبغضاء. أما إبليس فأبى بسبب مكابرته أن يتوب؛ بل طلب من الله الإمهال ليستمر في ضلاله ومكابرته، فأمهله الله عقاباً له، وابتلاءً لآدم وذرّيته.

أين هو هذا المكابر العنيد؟

هو في هذا الكون، مستمر في مكابرته، وكيده للإنسان، حريص كلَّ الحرص مع جنوده على إهلاك من يستطيعون من البشر بمثل ما هلكوا به.

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ أخبرهم: أنَّ عرش إبليس في البحر، يبعث سراياه في كلِّ يوم يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة للناس.

ويروي جابر عن رسول الله ﷺ «**أنَّ الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلانٍ تركته وهو يقول: كذا وكذا.**

فيقول له إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً.

ويجيء أحدهم، فيقول: ما زلت بفلان فما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله، فيقرِّبه إبليس ويقول له: نعم، أنت، أنت.

أي أنت الذي تستحق الإكرام»

رد في مسند الإمام أحمد

ومن طرائف ما رأيت: أنَّ رجلاً تعرَّض لمحاولات متكرِّرة من رجلٍ آخر، حاول فيها إغراءه لقبول رشوة في موضوع ما، قال: وما زلت أصدُّه، وهو يزيِّنُ الأمر لي، ويهوِّنه، ويسمِّيه بغير اسمه، ويحاول أن يؤكد لي أنه من باب الهدية، وتقدير الجهد، وأنه ما دام ليس فيه ضرر على أحدٍ آخر فليس فيه حرام ولا شبهة حرام، قال: وتخيَّلت صورة إبليس وهو يحلف لآدم وحوَّاء عليهما السلام إنه لهما من الناصحين حتى أغراهما بالأكل من الشجرة المحرَّمة عليهما مستخدماً كل وسائل اللين والرِّقة والإغراء والخداع، والكذب.

فقلت في نفسي: ما هذا الذي يدعوني الآن للرشوة ويهوِّنها عليَّ إلا تابع لذاك الذي هوَّن على آدم وحواء الأكل من الشجرة.

فلما جاءني في إحدى محاولاته، طلبت منه أن يصغي إليَّ قليلاً، ففعل، فذكرت له قصَّة إبليس حتى انتهيت منها، سألته: ما رأيك؟

قال بصراحة: لقد شعرت من خلال روايتك لقصته أنك تتحدَّث عن محاولاتي معك، ثم سكت قليلاً وقال: جزاك الله خيراً، لقد اتضح لي الحقّ.

وأقول: لو أن كلَّ مكابر مخادع مغرور راجع نفسه على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لما وقع في مستنقع المكابرة أبداً.

كابر إبليس فسقط إلى الأبد.

فأيُّ عاقل ـ يا ترى ـ يرضى أن يقتدي بهذا المكابر الأوَّل الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين؟

وأيُّ عاقل يرضى أن ينتسب إلى تلك المدرسة الخبيثة: «**مدرسة الذنوب الشيطانية**».

يقسم بعض أهل العلم الذنوب إلى أربعة أقسام، تتكوَّن منها المدرسة الشيطانية للذنوب التي يشرف عليها ويديرها إبليس ـ لعنه الله ـ.

وهي مدرسة قديمة، خبرة مديرها خبرة عظيمة، ونهاية تلاميذها نهاية أليمة. ومع أن مدير مدرسة الذنوب قد وزَّع ذرّيته على أنحاء الدنيا، وفتحوا الجامعات، والكليات، والمعاهد والمراكز الشيطانية ذات الخبرة العالية في مجال الإغواء والوسوسة والإفساد، وإثارة الشبهات والشهوات.

إلاَّ أنه قد ظلَّ هو محتفظاً بإدارة مدرسة الذنوب الشيطانية القديمة التي أنشأها منذ أن طرده الله من الجنة وغضب عليه.

أما الأقسام الأربعة فهي:

1- قسم الذنوب الشيطانية:

وهو من الأقسام المهمة التي تعلِّم من يدخلها من الإنس والجن أصناف الذنوب التي يتعاطاها الشيطان نفسه وهو قسم كبير يتكون من عدد من الفصول الدراسية الشيطانية:

الحسد ـ البغي ـ الغلّ ـ الخداع ـ المكر ـ الكذب ـ تحسين المعاصي وتهوينها ـ تقبيح الطاعات وتثقيلها ـ البدع ـ الضلال ـ إثارة الشُّبه.

يالها من فصول ذات خطر كبير على الدارسين.

2- **قسم الذنوب الملكية:**

وهو قسم خطير يتكون من عدد من الفصول الدراسية التي تغري الدارسين بما فيها من البريق الذي تنخدع به النفوس المريضة.

ومن أهم فصول هذا القسم:

العظمة ـ الكبرياء ـ الجبروت ـ القهر ـ التَّعالي بغير حقّ ـ استعباد الناس ـ الشرك بالله ـ احتقار الضعفاء ـ.

ونلاحظ أن هذا القسم بفصوله أخطر قسم في هذه المدرسة المشؤومة، لأنه قائم على «الكبرياء» وفي هذا منازعة لله عز وجل، وهذه المنازعة هي طريق الهلاك بلا شك.

3- **قسم الذنوب السبعية:**

وهو قسم مهم يتضمن عدداً من الفصول هي:

العدوان ـ الغضب ـ سفك الدماء ـ السَّطو على حقوق الآخرين ـ الظلم ـ أكل مال اليتيم والمسكين ـ القسوة والعنف.

4 - **قسم الذنوب البهيمية:**

وفيه الفصول التالية:

الشَّره ـ شهوة البطن والفرج ـ الزّنا ـ السرقة ـ البخل ـ الهلع ـ الجزع ـ التهوُّر ـ الجرأة على المعاصي ـ قلَّة الحياء.

obeikandl.com

مدرسة الذنوب الشيطانية			
قسم الذنوب الشيطانية	قسم الذنوب الملكية	قسم الذنوب السَّبُعيَّة	قسم الذنوب البهيمية
الحسد ـ البغي الغلّ ـ الخداع المكر ـ الكذب تحسين المعاصي وتهوينها تقبيح الطاعات البدع الضلال إثارة الشُّبه	العظمة ـ الكبرياء الجبروت القهر التعالي بغير حق استعباد الناس الشرك بالله احتقار الضعفاء	العدوان ـ الغضب سفك الدماء السَّطو على حقوق الآخرين الظلم والاعتداء أكل مال اليتيم والمسكين القسوة والعنف	الشَّره شهوة البطن والفرج الزِّنا السرقة ـ الهلع التهور الجرأة على المعاصي قلَّة الحياء

إنها مدرسة الضلال التي رفع صاحبها أسوأ شعارات التمرُّد والعصيان والمكابرة، والحسد الذَّميم.

إن كلَّ من ينتمي إلى المكابرة، يرفع الشعارات نفسها التي رفعها المكابر الأول «الشيطان الرجيم»، فإن النفوس المريضة تستأنس بالشعارات الصارخة التي تصادم الحق:

obeikandl.com

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76].

﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82].

﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 62].

﴿اكْفُرْ﴾ [الحشر: 16].

﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ [النساء: 118].

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119].

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

هذه هي الشعارات التي رفعها وما يزال يرفعها المكابر الأوَّل صاحب المدرسة الشيطانية المشؤومة، وهي الشعارات ذاتها التي يرفعها دعاة الرذيلة، وحاملوا لواء الضلال والانحراف في كل زمان ومكان فما أجدر الإنسان المؤمن الواعي بالبعد عنها !!.

obeikandi.com